

ملاحم الواقعية في شعر توفيق زياد

Dr. Farzaneh Rahmanian

Department of Arabic language and literature ,Ramhormoz Branch ,Islamic Azad University ,Ramhormoz ,Iran

المخلص :

توفيق زياد من ألمع شعراء فلسطين بعد محمود درويش وسميح القاسم . ولقد صنع هو ورفاقه القياديون الأحداث في أسمى الظروف عندما كانت فلسطين تعني أن تضع دمك على كفك . كان ابناً باراً لوطنه فلسطين ويتمتع بصفات قيادية وشعبية واسعة ، وكان ملتزماً بالخط الثوري ، كان يعتقد أنه لا تناقض بين المواقف الإيديولوجية الواضحة والمواقف الوطنية ، إن التصاق توفيق بالجماهير جعله عوناً تابعا لها . يُعتبر شعره امتداداً لشعر المقاومة العالمي ، ولقد اتجه في شعره إلى الكلاسيكية والواقعية والرومانسية في مواضع مختلفة ، ولأمانع من أن تتداخل في قصيدة واحدة اتجاهات شعرية مختلفة حيث يتعسر وضع الحدود الفاصلة فيما بينها . ينتمي توفيق زياد في مجموعته الشعرية إلى الفئة الأولى من شعراء الواقعية الاشتراكية ويعلن عن هويته ، كما أن شعره مليء بالغضب والحزن وبما أنه شاعر ملتزم بقضايا شعبه ومصير الإنسانية والالتزام يفرض على الأديب أن يكون مرتبباً بقضايا مجتمعه لذا حري بنا أن نتناول شعره بالدراسة لتبيين ملاحم الواقعية .

المقدمة :

اعتبر بعض الأدباء الفلسطينيين النصف الثاني من القرن التاسع عشر ايذاناً لنشأة الشعر الفلسطيني هذا الشعر الذي يعتبر امتداداً لحركة الشعر العربي لأنه لم ينشأ من فراغ . ولقد نما وترعرع ليواكب الركب على المستويين العربي والعالمي ، ومر بمراحل تطور ابتداءً من القصيدة الكلاسيكية ثم الوصول إلى الإتجاه الرومانسي والرمزي والواقعي وانتشار الشعر الحر داخل الأرض المحتلة وخارجها . وكانت نكبة عام 1948 ومأساة 1967 وغيرهما من الأحداث من مصادر الوحي والإلهام للشعراء في فلسطين والعالم العربي حيث تفاعلوا مع الأحداث وعبروا عن آلام الشعب وآماله ورسموا الطريق لحل قضية فلسطين والتحذير من خطر الصهيونية والإمبريالية ، إن شعراء فلسطين كسائر الشعراء العرب تنوعت قصائدهم بتنوع موضوعاتها ، وتنوعت عندهم الإتجاهات الشعرية الحديثة والمدارس الأدبية ، ولا بد أن ننسى أن ظروف هذا البلد وشعبه أملت على الشعراء اهتمامات خاصة بواقعهم ، وكان شعرهم ثمرةً لعلاقتهم مع أنفسهم ومع الواقع ومع الناس . وبرز الإتجاه الواقعي عند الكثير من الشعراء الفلسطينيين الذين حصروا فكرهم ومشاعرهم بواقع شعبهم وارتبطوا بدنيا الواقع ارتباطاً مدهشاً وقد يصعب أن نصنف الشعراء العرب الواقعيين تبعاً لهذا الإتجاه أو ذلك بحسب ما نعرف من اختلاف أساليبهم ونزعاتهم الاجتماعية ومذاهبهم السياسية ، وفي أشعارهم أيضاً قد يصعب التمييز بين الإتجاهات الأدبية المختلفة ، ونحن في هذا المقال بصدد البحث

عن ملامح الواقعية في شعر توفيق زياد وهو شاعر الشعب الذي أدخل الأدب المنطوق في الأدب المكتوب لأنه يؤمن بالجماهير ايماناً تاماً لذا يمتاز أسلوبه بالبساطة وشفافية التعبير والصدق ، والتعني مع الجماهير في أرض الواقع .

السيرة الذاتية :

توفيق زياد شاعر وكاتب سياسي درس أولأفي الناصرة ثم ذهب إلى موسكو ليدرس الأدب الروسي ، شارك طيلة السنوات التي عاشها في حياة الفلسطينيين السياسية في إسرائيل وناضل من أجل حقوق شعبه كان إلى يوم وفاته رئيساً لبلدية الناصرة (الجيوسي ، 1977م، 65) وشغل ذلك المنصب لثلاث فترات انتخابية وكان عضو الكنيست في ست دورات . رحل توفيق زياد نتيجة حادث طرق مروع وقع في الخامس من تموز من عام 1994 م وهو في طريقه لاستقبال ياسر عرفات عائداً إلى أريحا بعد اتفاقيات اوسلو، كان يعتقد أنه لا تناقض بين المواقف الايديولوجية الواضحة الجريئة ولقد ظل مؤمناً بشعبية الأدب (عن موقع توفيق زياد) .

منذ بزوغ موهبته الشعرية سافر إلى موسكو ودرس الأدب السوفييتي مما ساعده على ترجمة هذا الأدب والتأثر به . وهنا لا بد من الإشارة إلى أن نشاط الشاعر السياسي في إسرائيل قد ساقه إلى إصدار مجموعة قصائد كتبت في اوائل الخمسينات وتحدث فيها عن الأحداث المحلية والقومية والعالمية حيث وهب نفسه للإنسان، وكان الشاعر كثير الاهتمام بالفولكلور لذا أملى عليه هذا الفولكلور المادة الخام لكثير من قصائده .

أصدر توفيق زياد عددا من المجموعات الشعرية (أشد على أيديكم – ادفنوا موتاكم – اغنيات الثورة والغضب – ام درمان والمنجل والسيف والنغم - عمان في أيلول – تهليلة الموت والشهادة - سجناء الحرية وقصائد كثيرة أخرى) .

وتعد قصائد مجموعة " أشد على أيديكم " علامة بارزة في تاريخ النضال الفلسطيني وبعض قصائد هذه المجموعة تحولت الى أغاني وأصبحت جزءاً من التراث الحي لأغاني المقاومة الفلسطينية وترجم من الأدب الروسي ومن أعمال الشاعر التركي ناظم حكمت (عن ويكيبيديا الموسوعة الحرة)

الواقعية واتجاهاتها وسماتها :

حتى نتمكن من التوسع في البحث لابد من عرض مفهوم الواقعية اللغوي والإصطلاحي والإشارة إلى مظاهرها .

يلاحظ أن كلمة الواقع في اللغة مشتقة من وقع ، وقع على الشئ ومنه يقع وقعاً ووقوعاً ، والواقع هو الحاصل ، يُقال أمر واقع (ابن منظور ، مادة وقع) أما عن اصطلاح الواقعية فجاء في الفلسفة أنه مذهب يقدم الأعيان الخارجية على المدركات الذهنية ، ويراد به في نظرية المعرفة بوجه خاص أن للمعاني والكليات وجوداً مستقلاً عن الذهن .

أما الواقعية في الأدب فجاء أنه مذهب يعتمد على الوقائع ويعني بتصوير أحوال المجتمع على ما هي عليه (مجمع اللغة العربية ، مادة وقع) فالواقعية الأدبية اذن هي تصوير مبدع للإنسان والطبيعة في صفتها وأحوالهما وتفاعلهما مع العناية بالجزئيات والتفصيلات المشتركة للأشياء والأشخاص والحياة اليومية ولو كانت تفصيلات مبتذلة وكل ذلك ضمن الإطار الواقعي المؤلف (الأصفر ، 1999م، 133) بدأت نظرية الواقعية أساساً في الفلسفة قبل دخولها مجال الأدب فقد كان المقصود منها دراسة أي موضوع كشيء قائم بذاته بصرف النظر عن مظهره الخارجي أو علاقته بالتجربة الإنسانية (راغب، 2003م، 704) .

ظهرت الواقعية الغربية على شكل اتجاه أدبي في القرن التاسع عشر والعشرين تحت تأثير مزدوج لنهوض العلم وردة فعل على الإفراطات العاطفية المتصلة بالحركة الرومانسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر (نشاوي ، 1980م، 323) . أما الرومانسية وهي المذهب الذي ساد قبل الواقعية ، فهي تحمل في ثناياها الكآبة واليأس والهروب من المجتمع وحب الطبيعة والتغني بالجزلة وما تثير من الإنفعالات الذاتية والمشاعر الفردية مما يجعل ثورة المرء مكبوتة في حنايا قلبه تمزقه وتدفعه لليأس والتهرب واتخاذ المواقف السلبية (ابو حاقه، 1979م، 192) ، حين تغير العصر في صورته الاجتماعية والعلمية وأصبح يتطلب أسلوباً آخر يرضي حاجاته الجديدة كانت الواقعية معنى من معاني استمرار الرومانسية بحفاظها على ما صح وما قوى من عناصرها مع تطويره وتأصيله ، وإن ظهرت الواقعية في صورة الرفض للرومانسية فإن ذلك يرجع إلى انحراف الحركة الرومانسية في منتصف القرن التاسع عشر (محمد حسن عبدالله ، 1971م، 8) ، ذلك الجو الفكري الذي أحاط بالواقعية ورجح كفتها في موازين الذوق والأدب (مرزوق ، 1983م، 59) .

أما الواقعية فقد قسمها البعض إلى واقعية تقدمية صبغت اهتمامها على المجتمعات البشرية الفقيرة، وواقعية طبيعية تحاول معالجة المجتمع بالاصطلاحات العلمية ، والواقعية الاشتراكية وتعني بما يجب أن تكون عليه الحياة في الواقع (بطرس، 2005 م ، 329) . ولقد اعتاد النقاد أن يربطوا ظهور المذهب الواقعي في الشعر العربي الحديث بتأثيرات المدرسة الواقعية الروسية والغربية ولكننا نضيف إلى هذه التأثيرات جملة العوامل المادية والمعنوية التي أحاطت بالإنسان العربي المعاصر ودفعته إلى مقاومة واقعه الأليم (نشاوي، 321) وعلى هذا ظهر الإتجاه الواقعي في الشعر العربي في حدود منتصف القرن العشرين ، ومن سمات هذا الأدب أنه يصف ما هو كائن ويدعو إلى ما يجب أن يكون فهو وسيلة من وسائل بناء الحياة الإنسانية وتحسينها ولذلك فإن عليه أن يواجه الواقع بدل أن يهرب منه (المصدر نفسه، 331) ويحتفل الواقعيون العرب بالمبادئ الوطنية والقومية والإنسانية فيطالبون بتحرر الأوطان من المستعمر وتحرر الشعوب من التخلف الحضاري ويتطلعون إلى غد أمثل تسود فيه العدالة الاجتماعية ، ويقف بعضهم من الاشتراكية موقف الحماس على أساس أنها المنصف الوحيد من الفقر وفريق منهم يتمسك بالشرعية الإسلامية على أساس أن تطبيقاتها العملية حققت ما تنشده الإنسانية من قيم حضارية متقدمة على الشعوب المجاورة في العهود السابقة (المصدر نفسه، 332) وأعطت الحرب العالمية الثانية للشعوب المغلوبة على أمرها أملاً جديداً في الإستقلال ، ولذا كثرت الإنتفاضات الثورية وحدثت تحولات وبوقوع مأساة فلسطين بدأت ثمرات الفكر الاشتراكي تدخل بعض المجتمعات العربية ، وكان طبيعياً أن ينفر الجيل الجديد من الشعراء من الانكباب على القضايا الذاتية (هدارة، 1994م ، 37) ويتساءل الواقعيون كيف يترنم الشعراء بأغاني الحب والغزل و... في أمة مقهورة كأمتنا ويقولون إن صراخ فلسطين وعويلها يقض مضاجع النائمين فكيف ننشد الغزل ونهرب إلى الطبيعة والأمة تضج (نشاوي، 332) وهناك تجارب يتداولها شعراء الواقعية وكأنها مضامين متفق عليها كالتمرد والثورة وما ينسجم معهما من رفض أشكال القوة المتسلطة والإستعمار والنظم التقليدية مع التبشير بالفجر الجديد الذي تحلم به الشعوب (هدارة، 38) ومع التمرد والثورة ورفض الواقع تبرز ظاهرة الألم والحزن والإحساس بالضيق والغربة (المصدر نفسه ، 39) ويريد الواقعيون أن يكون الأدب وسيلة من وسائل البناء وهم حين يتحدثون عن الواقع لا يكتفون بتصوير سلبيات الواقع وانتقادها وإنما يعملون على التغيير مستوحين المثل المؤمنة بالإنسان وإرادته (نشاوي ، 331) وهم حين يصورون الإنحراف والهزيمة والمرض والخوف والدوافع اللاشعورية الدنيئة في الواقع الاجتماعي إنما يتخذون من هذا الوصف وسيلة لإصلاح الحياة الإنسانية الآتية والمستقبلية (المصدر نفسه، 332) وحاول الواقعيون نقل جوانب الحياة المختلفة في أدبهم من دون أن يكون عملهم استنساخاً أو تقليداً، وصبوا اهتمامهم على الطبقات الشعبية العادية التي لا تنعم برفاه العيش ، فوجدوا أنها تغرق في البؤس فدعوا الناس إلى وعي الظلم الاجتماعي اللاحق

بإخوانهم وطالبوا بالمساعدة في إيجاد العلاج ، من هنا كانت النظرة التشاؤمية إلى الخلل الإجتماعي وربما شاء الواقعيون من تصويرهم للواقع البائس أن ينبهوا إلى الخطر من عدم إصلاحه (فضل ، 2004م ، 33) وقد يلجأ بعض الشعراء الواقعيين إلى الأساطير اليونانية أو العربية والشخصيات البطولية والدينية أو استخدام الأسلوب الدرامي في شعرهم وذلك لبيان نواحي الصراع وتناقضات الحياة ، أو يستخدم الحوار بأشكاله المختلفة (هدارة، 38) وقد اتسمت لغة الشعر عندهم بالبساطة واقتربت من لغة الحياة اليومية لتناسب المضمون الذي استهدفه هذا الشعر وهي التجارب الواقعية الحية التي تستجيب لنبض الحياة اليومية ، وروح الشعب ومشكلات الطبقة الدنيا (المصدر نفسه، 43) .
ومهما هوجمت النظرة الواقعية فهي اتجاه راسخ في الأدب خاصة والفن عامة لكنه رسوخ نسبي إلى حد كبير شأنه في ذلك شأن كل الاتجاهات الأدبية التي هي في حقيقتها مجرد تقسيمات نظرية وتصنيفات نقدية يقوم النقاد بتقنينها من أجل أغراض الدراسة والتحليل والتوضيح . ومن الطبيعي أن ينطوي عمل أدبي واحد على اتجاهات أدبية قد تبدو متنافرة فيما بينها مثل الكلاسيكية والرومانسية والسريالية... الخ ويظل عملاً عظيماً (راغب ، 714) .

توفيق زياد والكتابة باللغة العامية

الشعر في فلسطين نابع من صميم من عانوا المأساة ويتحدث عن آلام الشعب حرفاً بحرف كأنه تعبير عما يدور في خلجات نفوسهم .فما بال هذا الشعر لو كان بلغة الشعب أو يتضمن ما يدور على ألسنتهم في أفراحهم وأتراحهم من أحداث ومناسبات . بعد احتلال اسرائيل للأراضي الفلسطينية حاولوا بثتى الطرق طمس الهوية الفلسطينية ولعل هذا هو السبب الذي دفع شعراءها بإدخال تعابير المجتمع المتداولة في تضاعيف قصائدهم . فالفولكلور أو الأدب المنطوق والذي لم يسجل بعد بطرق علمية صحيحة قابل للتزييف ولا بد من حماية هذا الفن الشعبي من الإنقراض المتعمد ، وبالتأكيد هذا سبب من الأسباب التي جعلت توفيق زياد يحاول ادخال الأدب المنطوق في الأدب المكتوب ، أما السبب الآخر فهو أن الفولكلور من تأليف الشعب وبما أن زياد يؤمن بالجماهير ايماناً تاماً فلا بد من استخدام لغتها ، هذا ناهيك عن البساطة العميقة التي تحملها أغاني الفولكلور (عن مقدمة ديوان توفيق زياد) . إن الشاعر في قصيدة من قصائده يضمن أشعاره ما جاء على لسان الشاعر عوض ذلك الشاب الثائر الذي لم يملك ثمن السلاح فتبيع زوجته الشابة أساورها ليحصل على السلاح فيتترك زوجته وأطفاله ويخرج للجبال ثم يقع أسيراً فيصدر ضده حكم الاعداء وعندما كان في السجن ينتظر الحكم أخذ قطعة من الفحم وكتب على الجدار كل ما كان يدور في خاطر من يقضي لحظاته الأخيرة (زياد ، صور من الأدب الشعبي ، 1974م ، 19) وقديشير توفيق زياد في قصيدة إلى ذلك ويقول : (الديوان : 528)
أغنية كتبتّها يد تائر
من جبل النار

بالفحم على جدران السجن بعكاً
ويذكرنا بتلك الأبيات الشعبية ويقول : (الديوان : 528)

لا تظن دمعى خوف
دمعى على أوطانى
على كمشة زغاليل
في البيت جو عانى
مين راح يطعمها بعدي

والأغاني الشعبية التي يدندن بها عامة الشعب تعتبر شديدة الالتصاق بواقع ما يعيشه الناس ولهذا قد استفاد منها توفيق زياد في قصائده وهذا يعطي للأدب محبوبية أخرى في الداخل والخارج إلى جانب أنه يقدم واقعيات المجتمع الفلسطيني وصفاته الخاصة والتي توثق أواصره ، وتوفيق زياد قد قام بتحويل بعض الأغاني واستخدمها بمهارة ودقة، ففي قصيدة يا جمال يبين الحنين للوطن مستخدماً أسلوب الحوار لتقريبه للواقع والأذهان أكثر فيقول : (الديوان : 365)

عَدَبَ الْجَمَالَ قَلْبِي
عندما اختار الرحيل
قلت : يا جمال صبراً
قال : كل الصبر عيل

...
قلت : يا جمال امشي
قال : لا دَرَبِي طويل
قلت : أمشي ألف عام
خلف عينيك أسافر
قال : يا طير الحمام
حنظل عيش المهاجر

كما استخدم توفيق زياد الأمثال حتى تبقى خالدة رغم أنف الأعداء الذين يهدفون إلى تزييف الواقع فيقول : " هذي يد العمال للعمال ملحاً في عيون الكارهين " عن المثل القائل (ملحّة في عين اللي ما يصلي ع النبي) و "كنت كالحفار قبيري" عن المثل القائل (حفار قبره بايده) أو " ملأوا آذانهم قطناً وطين " عن المثل القائل (أذن من طين وأذن من عجين) وأكثر الشاعر من استخدام الألفاظ الشعبية والأساليب المتداولة بين الناس مثل : إلتَمُوا – أبوس – حفنة ماء – أم الجدائل – بالهنا كل الهنا – إنشلة يا رب من كل ضيق . (انظر مقدمة الديوان : 160-169)

وقد جاء في بعض قصائده ببعض التهليل الشعبية مثل أغنية زفاف وتهليلة والتي تصور جلاء الأحاباب عن الديار وما يترك من حزن في قلوب الباقين على أرض الوطن : (الديوان : 379)
أحبابنا شيلوا من "طلعة العيوق"
راحوا وما ودّعوا يا حسرتي مخلوق
مررتُ صباحاً أحْيِي شجرة التوت
فلم أجد من يقول اليوم لي : فوتي

...
سألت دارهم عنهم فلم تعلم
يا دمع عيني على حيطانهم علم
يا حادي العيس لويوماً تلاقهم
خبرهمواني ما زلت أبكيهم
في الحقيقة أن الشاعر توفيق زياد بعنوان شاعر الشعب استطاع أن ينقل لنا صور من الأدب الشعبي حرصاً منه على تخليدها لأنها تاريخ شعبه .

توفيق زياد والواقع السياسي

إن احتلال فلسطين من قبل الغزاة الصهاينة واغتصاب أرض الآباء والأجداد كان موضع اهتمام الكثير من الشعراء ، ولقد تطرقتوا لمسائل وأحداث سياسية كثيرة كانت تجري على الأراضي

الفلسطينية مثل وصف مؤامرات الأعداء ، وتراجع الآخرين عن مطالبة الحقوق المغتصبة ، وبزيادة هجرة اليهود إلى الأراضي الفلسطينية ثم استقرارهم وسيطرتهم على زمام الأمور قاموا بفرض الأحكام الصارمة والمستبدة ضد المواطنين . وكان هدفهم إبادة كل أثر لعرب فلسطين فكان الجلاء والتعذيب والإقامة الجبرية والإعتقالات والسجون والنهب وانتهاك الأعراض مصير كل من يقاوم . والشاعر توفيق زياد في قصيدة ضرائب يوجه الأسئلة للحكام ليعرف مصير تلك النقود التي يأخذونها من الناس لأهداف سياسية مدبرة يقول : (الديوان : 182)

ولكن

لنا يا لصوص سؤال

إلى أين يذهب ما ندفع

ومن ذا بأموالنا يستفيد

إلى أين يا زمرة الحاكمين

إلى أين لنسأل لا جاهلين

فقد علمنا السنون

تريدون أن تجعلوا أرضنا

مقابر فوق خرائبها ترقصون

ولكنه لن يكون كما تشتهون

وحش الحروب ستسحقه قبضة الكادحين

ولقد تعرّض الكثير من الشعراء في واقع حياتهم وبسبب نشاطاتهم السياسية وأعمالهم الجهادية لكثير

من المضايقات من قبل القوات الإسرائيلية وتعرضوا للنفي والسجن والتعذيب ، ويعدد لنا الشاعر

صنوف التعذيب المتبعة في السجون ويقول : (الديوان :480)

حُطوا في رجلي القيد

حُطوا في كفي القيد

قُصُّوا صوتي ولساني

واكروا أعضائي بسجائرهم

وارموا

ماء النار على وجهي

كما يأخذنا إلى أجواء السجون وما يعاني فيه المسجون ، فيتذكر سجن الدامون الذي عانى فيه ما

عانى ، يقول : (الديوان : 114)

أتذكر إنني أتذكر

الدامون .. لياليه المرّة والأسلاك

والعدل المشنوق على السور هناك

والقمر المصلوب على

فولاد الشباك

أما المذابح التي مرت على أرض فلسطين فكل شاعر ينقل لنا عنها زاوية مختلفة عن غيره ، والشاعر

توفيق زياد ينظر إلى مذبحه كفر قاسم المؤلمة من منظاره الخاص ويقول : (الديوان:317)

وخيم صمتٌ ثقيلٌ مديد

على حلبة المجزرة

وتقطعه قهقهات الجنود

لنصرٍ بمعركة ظافرة

ويصرخ ضابطهم صرخة أمره

يُشير لكوم الضحايا
كفى إنهم سقطوا كالنشارة
كفى!

فالرصاصة

فيهم ،

خسارة ..!!

وأما عن واقع الأمة العربية فأكثر الشعراء تهمهم القضايا المصيرية والقومية لذا نجد في دواوينهم
أصداء للأحداث والمشكلات العربية والقومية . والشاعر توفيق زياد يهتم بالأحداث الثورية
والمصيرية ففي قصيدة "بور سعيد" يسطر لنا صمود الشعب المصري أمام

الاستعمار ويقول: (الديوان: 138)

يا شعبَ مصرَ ومصرَ قُبِرُ غزاتها

حُيِّتَ من شعبٍ أبِيٍّ مَقْدِمِ

حشدوا جحافلهم ، وعُدَّةَ حربهم

فصمدتْ لم تجبُنْ ، ولم تتحطمِ

والشاعر ينقل الأحداث الجارية في الأردن كسجلات وثائقية ويرصدها بتفصيل وبدقة فيذكر أحداث
كل يوم ويقول : (الديوان : 507 – 508)

اليوم هو السبت

الثالث من بدءِ المجزرة الدموية

وأنا أكتبُ عن شعبٍ ،

يتحدى الموت .

عن أردن

يرفض أن يُذبح

في

صمت !

اليوم هو الاثنين – اليوم الخامس

من بدء المذبحة الهمجية

والدودة ابن الدودة " حابس "

يفرض حرباً أهلية

...

اليوم هو الجمعة

التاسع من بدء المجزرة الدموية

لكن لم تسقط عمان

توفيق زياد والواقع الاجتماعي

أهم ما يصادفنا في المجتمعات الفلسطينية وخاصةً بعد حدوث المأساة : الحياة في المخيمات ووجود
طبقات لا تنعم برفاه العيش . ولقد ذاق أكثر الشعراء طعم قسوة الحياة والفقر والحرمان ولذا صوروا

تلك المشاهد بصدق ، وتوفيق زياد في قصيدة ضرائب يحدثنا عن سبب من أسباب الفقر وعن

اختلاف توزيع الثروة بين الطبقة الثرية والطبقة الفقيرة وما ينتج عن ذلك : (الديوان : 175)

ضرائبُ من كلِّ لونٍ وجنسٍ

تلصُّ من الجيبِ آخرِ فلس
وتترك أطفالنا جائعين
يهيمون بين المزابل .. يلتقطون
نفايات ما يأكل المترفون
وأطفالهم : كالعرائس شمس
كُرات من الشحم .. دون عظام
توفيق زياد أيضاً يشير إلى ظاهرة إجتماعية أخرى وهي تفشي الأمية ويقول عن ذلك: (الديوان :260)
وماذا تقولُ الريحُ
يا شبكي المفتوح
عن جارةٍ لم تقرأ الكتاب
لم تمسك القلم

وهناك بعض الخرافات والعادات متفشية في المجتمع حيث يتوسل بها البعض لقضاء بعض الامور
المستعصية مثل التوسل بالتعاويذ والسحر لطرد الشيطان . ويصور لنا الشاعر حال أم تبحت عن
تعويذة لشفاء طفلها كعدسة مصوّر فيقول : (الديوان : 334)

تجلس أم في العشرين
وعلى يدها طفل
سحنته في لون الليمون
تتطلع في الشيخ "شهاب" :
أكتب لي بالله حجاب
يشفي طفلي ممّا فيه
أو لست وليّاً صالح
وكراماتك يعرفها الغادي والرائح..؟

...

وبمكرودهاء بيتسم :
حسناً ! جيئي بالطفل إلى البيت
مع بعض البيض ، وقنينة زيت
مع ديك ، حمرته في الطابون
وسأعطيك حجاب
يطرد منه الشيطان الملعون ..
والشاعر يريد التنبيه إلى وجود هذه الأمراض الاجتماعية حرصاً منه على علاجها .
أما عن الحياة البسيطة التي يعيشها الشعراء في فلسطين وواقعهم الإجتماعي هناك يقول

توفيق زياد : (الديوان : 237)

أنا إنسانٌ بسيطٌ
لم أضع يوماً على كتفيّ مدفع
أنا لم أضغط زناداً طول عمري
أنا لا أملك إلا
بعض موسيقى توقّع
ريشة ترسم أحلامي
وقنينة حبر
أنا لا أملك حتى خبز يومي

وأنا بالكاد أشبع
أنا أملك إيماني الذي
لا يتزعزع
وهوى ..

يكتسح الكون
لشعب
يتوجع

والشاعر في قصيدة رمضان كريم ينقل لنا بعض العادات اليومية المتداولة بين فئات المجتمع البسيطة ويرصدها بكل صغيرة وكبيرة للدعوة إلى وعي الظلم اللاحق بالفلسطينيين فالعيد قادم ولكن كيف تمر ليلة العيد في الفردوس المسلوب يقول: (الديوان: 328-342)

بييت " أبي عبدالرحمن " تجمعت الحارة
تقتل كعك العيد

وتودع آخر ساعات من رمضان
وتعيش الليلة حتى الصباح
تتحدث تشرب قهوتها .. وتثرثر
ويقص الواحد للآخر ما يتيسر
عن أشياء أمر من العلقم

...
وعن الوطن الغالي
والفردوس المسلوب
كما يتحدث عن أحلام الفقراء في ليلة العيد ويقول :

ويقول خيالي آخر:
" أه لو أملك خاتم شبيبك لبيك
يأتي حين أشاء العفريت
(سعدك يا سيّد بين يديك) !
لقلبت الدنيا .. أو قدت جحيم
وقذفت إليه بكل لئيم
وجعلت الخبز بدون نقود
وحفرت لكل غنيّ قبراً
ورفعت لكل فقيرٍ قصرأ

...
ويقهقه في مرح (قرط السُّكَّر !!)
اسكت يا ابن الهيك وهيك
يكفي مصُّ أصابع
تكفي أحلام
هذا الشعب الزاحف بالأعلام
هو خاتم شبيبك لبيك
هو مصباح علاء الدين .. !!

إن العامل والفلاح والبنّاء وأمثالهم هم مجموعة الكادحين الذين يتعبون ويشقون ويضحون بسعادتهم من أجل الآخرين في سبيل تأمين معاشهم بعرق جبينهم ويؤمن توفيق زياد بنضال العمال يقول:

(الديوان : 140)

يا اخوتي العمال

أحبكم جميعاً

أحبُّ كل قبضة مهزوزة

في أوجه الأندال

وكل جبهة شامخة

في ساحة النضال

وكل كلمة جريئة .. تُقال

وأيضاً يؤمن بأن أزرع العمال تصنع المعجزات وتزيل الصعوبات كمصباح علاء الدين

يقول:(الديوان:164)

يا رفاقي .. أنا لا أعرف ماذا سوف يأتي

أي مجهولٍ ستجلوه

صواريخُ الحياة

كيف تبني أزرع العَمالِ

صَرَخُ المعجزات ..

إنما أعرف أن الناسَ في "أرض العجائب"

أنجبوا .. "كولمبوس" الجوِّ ، وملّاح الكواكب

أنه ... زال أمامي كل صعبٍ

أن .. مصباح علاء الدين .. ما عاد خيال !! ..

توفيق زياد والإحساس بالألم الناتج عن الواقع المرير المعاش

وعن هذا الألم الذي يملأ قلب كل فلسطيني بسبب ما جنته عليه يد الغاصبين يتكلم توفيق زياد بعنوان

شاعر خلفته المأساة في الداخل : (الديوان : 124)

أحبيني ..

انادي جرحك المملوء ملحاً، يا فلسطيني

أناديه وأصرخ

ذوّبيني فيه .. صبيني

أنا ابنك : خلّفتني ها هنا المأساة

عُنقاً تحت سكين

أعيش على حفيف الشوق ..

في غابات زيتوني

وأكتبُ للصعاليك القصائد سكرّاً مرّاً

وأكتب للمساكين

إن الحزن عند الواقعيين لا يماثل الحزن عند الرومانسيين كما هو واضح لأنه حزن موضوعي يتأسى

على الواقع الأليم الذي يعيشه الانسان . توفيق زياد في قصيدة رجوعيات يحزن على أحبابه الذين

فرّقتهم عنه يد المأساة يقول : (الديوان : 121)

دموع هذه الريح التي
تأتي من الشرق
مُحمّلة هتافٍ أحبتي الغيابِ
مذبوحاً من الشوق
صريحاً عاري النبرات
ملء الأرض ، والأفقِ
مُحمّلة أسى الوادي

توفيق زياد والتمرد ورفض الواقع الأليم

الانسان هو مصدر الوجود وقد وهبه الله الحرية، والرفض هو المظهر المباشر للحرية وإذا كان هناك ما ينغص على الانسان حرّيته ويعكر صفوها فإنه سيتمرد ويثور ليخلص من العبودية ، وإذا كانت هناك مؤامرات ومخططات تُنفذ للاضرار بمصالحه وكيانه سيرفضها وهذا ما حدث بالواقع على أرض فلسطين . لقد دُبرت الدسائس لاحتلال الاراضي الفلسطينية وفي النهاية كان الانسان هو الذي تُنتهك حقوقه ، والشعراء الملتزمون يستخدمون أقلامهم في خدمة الانسان ويحاولون فتح الأعين على أصل البلاء ، ويشحنون الضمائر بالثورة على التناقضات التي تمزق حياة الانسان ليهيئوا النفوس للتغيير المنشود . والشاعر توفيق زياد هو شاعر الشعب كما ذكرنا أنفاً يبين لنا سبب تمرده على العدو الصهيوني لأنه قد سلبه الكثير من حقوقه المشروعة في وطنه ولهذا يتحدى الظلم قائلاً: (الديوان : 234 – 233)

سليوني الماء ، والزيت ،

وملح الأرغفة

وشعاع الشمس ، والبحر ،

وطعم المعرفة

وحبيباً – منذ عشرين - مضي

أتمنى لحظه أن أعطفه

سليوني كل شئ

عتبة البيت ، وزهر الشرفة

وفي مجال ذكر الرفض والثورة والمقاومة جدير بنا أن نشير إلى أن الشعب الفلسطيني يرفض ما يجري على أرضه من انتهاك حقوقه ليرد هذا الحق ، ولم يحمل السلاح حباً في حمل السلاح لكن الغاصبين طردوا هذا الشعب من أرضه ، اذن فلا بد من حمل السلاح وتوفيق زياد يعلل تمرد الفلسطينيين وينفي عنهم كل عمل وحشي ليثبتته للعدو ، يقول في ذلك: (الديوان : 448)

نحن لا نأكل لحم الآخرين

نحن لا نذبح أطفالاً، ولا نصرع ناساً آمنين

نحن لا ننهب بيتاً، أو جنى حقلاً

ولا نطفي عيون

أما الشعب الفلسطيني سيقاوم شتى أنواع المقاومة وسيصنع جيلاً ثائراً يغذونه بالأفكار الثورية في كل مدن فلسطين ، عن هذا يقول الشاعر : (الديوان : 199)

ونملاً الشوارع الغضاب بالمظاهرات

ونملاً السجون كبرياء

ونصنع الأطفال .. جيلاً ثائراً.. وراء جيل
كأننا عشرون مستحيل
في اللدّ ، والرملة ، والجليل ..
إنّا هنا باقون
فلتشرّبوا البحرأ ...

توفيق زيّاد والتبشير بفجر جديد

ديوان توفيق زياد ملئ بالأبيات التي تبشر بالفجر الجديد الذي ينتظره الفلسطينيون ، ومعظم قصائده تنتهي بنهاية سعيدة مليئة بالتفاؤل يقول عن ذلك: (الديوان 186)
يا شعب قل للظالمين : أتحسبون بأنكم ستُخلدون
نبنّي الحياة وكلّ خير في الحياة .. وتهدمون
قولوا لهم : الأمس فات وجاء ما لا تحسبون
وغدّ الشعوب على الشعوب يطلّ وضّاح الجبين
وبما سفكتم من دم الشعب البرئ ستؤخذون
ويقول أيضاً عن العودة: (الديوان: 112)
سيعود شعبي في ضياء الشمس
من خلف الحدود
سيعود للطلّ المهدمّ
يبنتيه من جديد

توفيق زياد وهب نفسه للانسان وحقوقه أينما كان ويهمه مصيره وثورته على السلطات الجائرة ففي قصيدة عبدان يتحدث عن صمودها ويدعوها من أجل التحرير وتأميم النفط فيقول: (الديوان: 61-63)
عبدان لا تخشى أزيز رصاصهم
لا تحفلي بالموت في الميدان

...
وامشي على البارود والنيران
فالنصر ليس لزمرة موبوءة
النصر للأمجاد للانسان

ثم يتحدث عن إرادة هذه المدينة في رد الغازين ورفضها للقوى الاستعمارية بأي شكل تكون :
أقوى من الظلام والأرباب

...
أقوى من الأسياد ، والأذئاب
ما أنتِ إلا قطعة من عالم
يمشي على الغازين والغصّاب

توفيق زيّاد والاستعانة بالأساطير والمواقف البطولية لتصوير الواقع

قد استعان الشعراء بالأساطير المختلفة وذكروا الشخصيات الدينية والبطولية إما لوجود تشابه بين واقعيات حياة تلك الشخصية والواقع المعاش أو لتنظير واقع البطل التاريخي المذكور وواقع

الفلسطيني أو لاستلهام المواقف البطولية من تلك الأسطورة . ولقد لجأوا إلى هذه الأساليب لسرد بعض الحقائق بصورة مغلقة بسبب الأجواء الحاكمة ، والشاعر توفيق زياد يطلع علينا في قصيدته على جذع زيتونة بنمط جديد بوقته من تنظير واقعه المعاش بواقع المقاومة عند الشعوب الأخرى حيث يشير إلى مادام لافارج التي كانت تحيك بالصوف أسماء من خانوا الثورة الفرنسية لغرض معاقبتهم بعد انتصار الثورة ، وبما أن الشاعر يعيش في فلسطين التي لها تاريخها الغني عن الذكر وطبيعتها الخاصة لذا اتخذ شجرة الزيتون التي ترمز للأصالة والاستقامة ليحفر عليها كل الوقائع المرّة التي مرت على المجاهدين لتبقى على مر السنين وثيقة لمحاكمة الجناة ، ولأن الفلسطينيين معرضون للتفتيش والتوقيف فالكتابة على الورق لا تجدي اذن الحفر على جذع الزيتون أجدي يقول الشاعر: (الديوان : 287- 291)

لأنني لا أحيك الصوف
لأنني كل يوم عرضة لأوامر التوقيف
وبيتي عرضة لزيارة البوليس
للتفتيش " والتنظيف"
لأنني عاجزان أشتري ورقا ،
سأحفر كلّ ما ألقى ،
وأحفر كل أسراري
على زيتونة
في ساحة
الدار ..؟؟

...
سأحفر رقم كل قسيمة
من أرضنا سُلبت
وموقع قريتي ، وحدودها
وبيوت أهلها التي نُسفت
وأشجاري التي أُقتلعت

...
وأسماء الذين تفننوا في لوك أعصابي ، واتعاسي
وأسماء السجون .
ونوع كل كلبشة
شدّت على كفي

...
وأحفر :
كفر قاسم لست أنساها
وأحفر :

دير ياسين تشرش في ذكرها
ويسوق لنا الشاعر أيضاً واقع حياة بطل من أبطال فلسطين وهو سرحان العلي الذي نسف ماسورة
البترول في الثورة ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني وقد ذكره توفيق زياد في قصيدة " سرحان
والماسورة " المنسوخة على نغم الحكايات الشعبية يقول فيها : (الديوان : 382- 388)
كان يمشي نحو " تل الحارثية"
حيث ماسورة بترول شقية

...
كان يمشي نحو " تل الحارثية "
وبجيبه دناميت ، و نار وفتيل
وعلى كتفه كانت ...بندقية
وتبين القصيده ما عاناه البطل من أنواع التعذيب وعن ذلك يقول الشاعر :
مرة في الطوق مشنوه على
ألواح صبار ، برجل حافية
وهوى العسكر بالسوط على ظهره

...
وبأعقاب البنادق ..
حطموا السدة ، والباب ، وكل الآنية
نسفوا البيت وصاحوا :
(أنت .. يالبن .. الزانية ..) !! ...
عندها سرحان لم يابه لنيران الألم
إنما صرّ على أسنانه ، في فمه المملوء دم
...
عاش سرحان العلي مطارداً عاماً ونصفاً –
ما درى حي مقره

...
كان في كل مكان
واسمه عاش على كل لسان
إن الشاعر توفيق زياد بدأ القصيدة بتوصيف البطل ثم وصف المكان والزمان والطبيعة حيث الأحداث
جارية وهي قصيدة ذات أبعاد قصصية كما أنه استخدم فن الحوار لتقريب الواقع أكثر فأكثر ، فلماذا
يقص الشاعر إن لم تؤلمه قضية ولماذا يأتي بهذا الأسلوب إن لم يرد فكرة . هنا لا بد من الوعي
الكامل بالقضية التي يلتزم بها الشاعر ، فالشاعر لم يكتف فقط بالمواقف البطولية في فلسطين بل له
قصائد فيها ذكر الأبطال الثوريين في بقاع العالم منهم البطل مانيلاس غليزوس وبطل الشعب
اليوناني الذي غامر بحياته ليمزق علم الاحتلال الهتلري لبلاده الذي ارتفع فوق الاكربول فأطلق
بذلك الشرارة الأولى لحركة المقاومة الشعبية في اوروبا الغربية يقول : (الديوان : 56)
وعلى الاكربول على القمة
ذكرى تقري قلب العتمة

...
ذكرى انسان
ابن اليونان
بيد كيدالجنى تمزق
علم الفاشست الأسود
وتعلق ..
فوق أكرربول المطرق
علم اليونان المشرق
رمزاً لتحررها يخفق

النتائج

توفيق زياد شاعر الشعب والقضية كان ابناً باراً لوطنه فلسطين وكونه كان يخدم بلاده وأرضه كان التزامه من أجل وطنه وفي ضوء ظروف مرت بها فلسطين والبلاد العربية .
قصائد توفيق زياد الوطنية مليئة بالمناسبات الوطنية والقومية وتعالج قضايا الانسان أينما كان والواقعية الاشتراكية مشهودة في شعره حيث أن نهايات قصائده متفائلة وسعيدة وتبشر بالفجر السعيد فقد نقل جوانب الحياة المختلفة والمواقف الإجتماعية والسياسية والحزن والألم الناتج عن مصير الانسان في فلسطين وواقع التجربة التي يعانها ، كما أن سمات التمرد والمقاومة عنده كثيرة لأنه كان يؤمن بكفاح الجماهير ولذا استخدم لغتهم وثقافتهم التي تتسم بالبساطة ، والخطوط الشعبية واضحة في تضاعيف أشعاره وبهذه الصورة كان يجنح نحو الواقعية ، وبما أنه كان شاعراً ملتزماً فقد فرضت عليه هذه النظرية أن يكون مرتبطاً بقضايا مجتمعه وأن يكون أدبه موجهاً وحتى قضاياها الذاتية اتخذت شكلاً واقعياً فالحبيبة الشخصية تتسع دائرتها لتكون هي المحبوبة والوطن وأحزانه الشخصية لا تنفصل عن أحزان العامة ، بهذه الصورة كرّس نفسه وشعره لخدمة واقع الجماهير على أرض الواقع فلسطين واستشهد من أجل خدمة واقع الجماهير .

المصادر:

- ابن منظور ، جمال الدين ، لسان العرب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1998م .
 - ابوحاقة ، احمد ، الالتزام في الشعر العربي ، دار القلم للملايين ، بيروت ، ط1 ، 1979م .
 - الأصغر ، عبدالرزاق ، المذاهب الأدبية لدي الغرب ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، 1999م .
 - بطرس ، انطونيوس الأدب تعريفه انواعه مذهب ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، طرابلس ، لبنان 2005م .
 - الجيوسي ، سلمى ، موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1997م .
 - راغب ، نبيل ، موسوعة النظريات الأدبية ، الشركة المصرية للنشر لاونجان 2003م .
 - زياد ، توفيق ، ديوان توفيق زياد ، دار العودة بيروت ، 1970م .
 - زياد ، توفيق ، صور من الأدب الشعبي المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1974م .
 - عبدالله ، محمدحسن ، الواقعية في الرواية العربية ، دار المعارف بمصر ، 1971م .
 - فضل ، صلاح ، منهج الواقعية في الابداع الأدبي ، دار الكتاب المصري ، القاهرة ، 2004م .
 - مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز ، منشورات دار الثقافة ، ايران ، قم ، 1990م .
 - نشاوي ، نسيب ، مدخل الى دراسة المدارس الادبية في الشعر العربي المعاصر ، الجمهورية العربية السورية ، 1980م .
 - هدارة ، محمد مصطفى ، بحوث في الأدب العربي الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت 1994م .
- المواقع الالكترونية :

<http://www.Zayyd.com>

<http://ar.wikipedia.org/wiki> توفيق زياد